
الوجيز في
تاريخ المغرب الإسلامي
من الفتح إلى سقوط الموحّدين
مجموعة مؤلّفين

1- فتح بلاد المغرب:

المقصود بفتح المغرب ضم بلاد المغرب إلى الدولة الإسلامية. توقفت الفتوح في السنين الأخيرة من خلافة عثمان بن عفان لانشغال المسلمين بأحداث الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ثم الحرب بين المسلمين في معركتي الجمل وصفين. وعندما استقر الأمر لمعاوية قرّر معاودة ما بدأه من فتح المغرب، فأمدَّ قائده عقبة بن نافع بعشرة آلاف مقاتل، فبدأ تقدمه سنة 62هـ، 681م من سرت نحو فزان، ثم إلى بياض، وفتح بعدئذ غدامس وقفصة وقسطيلية.

وضع عقبة خطّة محكمة لفتح المغرب، حيث قسمها إلى شطرين، أولها إنشاء قاعدة حربية متقدّمة في قلب إفريقية (تونس) لتعسكر بها الحاميات المسلمة ولتوُجّه منها الحملات إلى أنحاء المغرب بدلاً من الانطلاق من مصر البعيدة. وثانيهما القضاء على مركز المقاومة في إفريقية (تونس) بغزو البربر في عقر دارهم والتوغل في الصحراء بدلاً من الاكتفاء بغزو المدن الساحلية.

نفّذ عقبة الشِّطر الأول من خطته، بأن اختط مدينة القيروان، ولم يتمكن من تنفيذ الشطر الثاني من خطته، لأنه عُزل عن ولاية إفريقية عام 55هـ الموافق 674م لعدم رضا والي مصر عنه. وضُمَّت إفريقية (تونس) إلى مصر تحت ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري، الذي ولّى أمر إفريقية لمولاه دينار أبي المهاجر.

انتهج البربر سياسة جديدة في حرب المسلمين، وهي التحالف مع الروم، مما حمل أبا المهاجر إلى اتباع سياسة الملاينة مع البربر أيضًا. وأفلح بهذا في كسب ودِّ زعيم البربر كسيلة واعتناقه الإسلام، مما كان له أثره في نشر الإسلام بين البربر.

وانحاز البربر إلى أبي المهاجر عام 59 هـ الموافق 678م، فحاربوا معه الروم في قرطاجنة. وصالحه الروم في قرطاجنة وتنازلوا له عن شبه جزيرة شريك.

لم يحلّ عام 62هـ الموافق 681م حتى عُزل أبو المهاجر عن الإمارة وأعيد إليها عقبة، وكان في عهد الخليفة يزيد بن معاوية عقب وفاة مسلمة بن مخلد والي مصر. فواصل عقبة تنفيذ الشطر الثاني من خطته، فوصل في تقدمه إلى شاطئ المحيط، على الرغم مما لقيه من مقاومة عنيفة من الروم والبربر. وقُتل عقبة عند حصن تهودة في طريق عودته إلى القيروان، وقُتل معه أبو المهاجر، وذلك لسوء سياسته. وخشي المسلمون بالقيروان على أنفسهم فأخلاها حاكمها زهير بن قيس عام 65هـ الموافق 684م، وانسحب إلى برقة، فدخلها كسيلة، وأمَّن من بقي بها من المسلمين.

ومكث زهير في برقة أربع سنوات ينتظر المدد لمحو الآثار السيئة لمعركة تهودة .وعندما وصلته إمدادات الخليفة عبد الملك بن مـروان وأمره بالتقدم مرة أخرى إلى المغرب عام 69هـ الموافق 688م، تحرك ليصطدم بقوات كسيلة المنسحبة من القيروان لتتحصن بـ ممس. ودارت معركة

رهيبة، انتهت بهزيمة البربر، وقُتل كسيلة. ولكن لم يجْن زهير ثمرة نصره، لأنه أخطأ في تأمين ظهره عندما توغّل في داخل البلاد، فباغته الروم في طريق عودته إلى برقة، وقضْوا على جنده، واستُشهد زهير بنفس الطريقة والسبب اللذين استشهد بهما عقبة.

حَرص عبد الملك بعد مصرع زهير على إتمام فتح المغرب محافظةً على هيبة الدولة الإسلامية، فولى عليها حسان بن النعمان عام 76هـ الموافق 695م، وحشد له أربعين ألف مقاتل.

سار حسان إلى المغرب، مجتازًا برقة وطرابلس حتى وصل إلى سهل تونس، حيث انضم إليه عدد كبير من البربر، فقصد بهم قرطاجنة ـ عاصمة الروم ـ فحاصروها ثم افتتحها، وترك بها حامية صغيرة، وانصرف إلى القيروان. وثارت المدينة من خلفه، فعاد إليها وافتتحها عنوة وخَّرب حصونها.

وواجه حسان خطرًا آخر، وهو تجمع البربر خلف امرأة منهم يعتقدون فيها السحر والكهانة، عُرفت باسم الكاهنة، وتمكنت الكاهنة من هزيمة جيش حسّان، ورده إلى برقة مرة أخرى. وخَّربت البلاد ظنًا منها أن سبب مجيء المسلمين هو الغنائم. فضاق بها البربر ذرعًا، واستنجدوا بحسان. وتقاسمت الكاهنة قرطاجنة مع الروم.

قرر حسان إنهاء هذا الأمر، فأعانه البربر، فقضى على الكاهنة. وفي عام 83هـ الموافق 702م، افتتح قرطاجنة، وأجبر الروم على مغادرة إفريقية إلى الأبد، ودانت المغرب للمسلمين بعد صراع امتد لأكثر من ستين عامًا بين العرب من جهة والروم والبربر من جهة أخرى.

2- الدولة الرستمية:

الدولة الرستمية دولة أقامها الإباضية في المغرب الإسلامي في الفترة من 137 ـ 297هـ، 754 ـ 909م عندما قدم عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب جنديًا فاتحًا مع جيوش المسلمين التي كانت ترسلها الخلافة العباسية في بغداد. وكان يدين بمذهب الإباضية. وكان من الذين فر بهم القائد أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري وولاه على القيروان.

اهتمت الدولة العباسية بخطر هذه الدولة بالمغرب والمنافسة على المناطق الحساسة، فبعثت جيشًا للقضاء عليه قبل استفحال أمره. واضطر عبد الرحمن إلى أن يترك قاعدته في القيروان إلى موضع مدينة تاهرت الحالية. ثم ما لبث أن أعلن قيام دولته في هذه المنطقة، فتقاطر إليه الإباضية من جميع أنحاء المغرب والمشرق. وأعلنوا عدم تبعيتهم للعباسيين، وانتقدوا الأسس التي قامت عليها الخلافة العباسية، مما جعل الخلافة العباسية تدخل معهم في حروب قاسية.

تمكنت هذه الدولة من الصمود في وجه العباسيين وتغلبت على مشاكلها الداخلية في عهد مؤسسها عبد الرحمن وخليفته ابنه عبد الوهاب ثم خليفتهما الثاني ميمون بن عبد الوهاب.

بدأ الضعف يدب في الدولة الرستمية، لأسباب منها: إصرارهم على أن يكون الحاكم منهم، وتميز الفرس على غيرهم من الناس في الدولة، وانصراف الحكام المتأخرين إلى اللهو وإهمال الإصلاح. هذه الأسباب وغيرها أدت إلى الفساد، ثم تصدع بناء الدولة التي انهارت باغتيال يقظان بن أبي اليقظان آخر الحكام من الأسرة الرستمية، سنة 296هـ ، 908م وأتت الدولة الفاطمية على البقية الباقية منها سنة 297 هـ ، 909م.

قامت الدولة الرستمية بدور بارز في دعم الحضارة الإسلامية بالمغرب ونشر الإسلام في بلدان غربي إفريقيا عبر الطرق التجارية الصحراوية، التي تربط مدن شمالي إفريقيا بمدن غربي إفريقيا.

3- دولة الأغالبة:

دولة الأغالبة إحدى الدول التي استقلت عن الدولة العباسية في تونس. بدأت هذه الدولة بإبراهيم بن الأغلب ابن سالم بن عقال التميمي حين ولاه الرشيد أمر البلاد عام 184هـ،800م، واعترف به أميرًا مستقلاً بإمارته تحت ظل الخلافة العباسية.

كان إبراهيم أديبًا شاعرًا خطيبًا ذا رأي ونجدة وبأس وحزم وعلم بالحروب والسياسة. لم يتولَّ حكم إفريقية (تونس) أحسن سيرة منه، فطاوعته البربر. كانت الظروف الخاصة بإفريقية هي التي جعلت الرشيد يوافق على إقامة هذه الإمارة المستقلة، لتكون حاجزًا بين أطماع الأدارسة وبين البلاد الواقعة شرق دولتهم.

نجح إبراهيم بن الأغلب في أن يوطد حكم أسرته ويقضي على الثورات التي اندلعت في إقليمه، ويوقف طموح الأدارسة بعقد اتفاق يكف بموجبه كل منهما عن الآخر.

بنى إبراهيم عاصمة جديدة لملكه بدلاً من القيروان وسماها العباسية دليلاً على ولائه للعباسيين. وأخذ يعمل على تكوين قوة بحرية كبيرة لترد هجمات الروم المتلاحقة على سواحل إفريقية، وتبعدهم عن الساحل نهائيًا، ولتستولي على قواعدهم المواجهة للساحل في صقلية ومالطة وسواحل إيطالية الجنوبية والجنوبية الغربية.

وازدهرت في عهدهم الحياة الاقتصادية والصناعية والثقافية، والعمرانية. وظلت تؤدي دورها المنوط بها حتى نجحت الدولة الفاطمية المغربية في القضاء عليها سنة 296هـ، 908م، كما قضت على الدولة الرستمية والدولة الإدريسية من بعد هذا، وأجبرت الأغالبة على الخروج من إفريقية إلى مصر.

4- دولة الأدارسة:

دولة الأدارسة نبتت بذورها في عهد خلافة الهادي بن المهدي العباسي (169 - 170هـ، 785 - 886م). فقد خرج الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم

ـ بالمدينة على حكم العباسيين سنة 169هـ ، 785م، والتف حول دعوته الناس فطردوا الوالي العباسي، وساروا إلى مكة، ولكن العباسيين تمكنوا منهم وقتلوهم وفيهم الحسين نفسه.

شهد هذه النهاية المؤلمة للحسين عمه إدريس، فرأى بثاقب بصره أن الجزيرة العربية ليست مكانًا مناسبًا للثورة ضد العباسيين فهرب إلى مصر، ونصحه واليها واضح ذو الميول الشيعية بالذهاب إلى المغرب الأقصى، بعيدًا عن يد العباسيين. فخرج من مصر متنكرًا مع مولاه راشد حتى استقر أخيرًا بمدينة وَلِيلَى المغربية عام 172هـ، 788م. واستطاع أن يقنع الزعيم البربري إسحاق بن محمد بن عبدالحميد بنبذ طاعة العباسيين والدعوة له بين البربر. ولم يتردد إسحاق في قبول دعوته على الرغم من ميل البربر إلى أهل السنة، ولكنه رأى أن نقمتهم على العباسيين تكفي لمساندة الشيعة. وأقنع إسحاق شعبه بمؤازرة إدريس، وأُعلنت دولة الأدارسة في أحضان قبائل أوروبة ومغيلة وزناتة والبربر، عام 172هـ، 788م.

أخذ إدريس الشيعي العلوي في نشر مذهبه ونشر الإسلام فغزا تامسنا وتاولا اللتين لم يكد يصل إليهما حتى أعلن إسلامه كل من لم يسلم من قبل، وسقطت في يده تلمسان، فكانت ضربة قوية للخلافة العباسية أزعجت هارون الرشيد، فهم بإرسال جيش للقضاء على إدريس ولكنه خشي الهزيمة لبعد الشقة، ففكر في استخدام الحيلة للتخلص من إدريس. وتقول رواية إنه دس إليه مولى يسمى الشماخ تمكن من الدخول في خاصة إدريس، إلى أن وجد فرصة فأهدى إليه عطرًا مسمومًا قضى عليه. ولما كان الناس في ذلك الحين يأخذون بنظام الوراثة في الحكم فقد انتظروا حتى وضعت كنزة البربرية مولودها من إدريس فسموه إدريس، وجعلوه إمامًا عليهم عام 177هـ، 793م.

وبنى إدريس بن إدريس عاصمة جديدة لدولته سميت فاس. وتوسع في فتوحاته وضم المغرب الأوسط (الجزائر)، وسعى للقضاء على نفوذ الخوارج الذين صوروا حكمه على أنه حكم أرستقراطية عربية مترفعة عن الشعب. ووازن في الوظائف بين العرب والبربر، ووصلت الدولة إلى قمتها في عهده، وحكم بعده ثمانية من الأدارسة، كان أعظمهم قوة وأعلاهم قدرًا يحيى الرابع بن إدريس بن عمر، (292 - 310هـ، 904 - 922م) الذي امتد ملكه إلى جميع بلاد المغرب الأقصى. أخذ الضعف يتسرب إلى هذه الدولة في عهد خلفاء إدريس الثاني فخرج عليه أخوه محمد بن إدريس (213 - 221هـ، 828 - 835م)، فأضَرَّ هذا الصراع بالتقدم الحضاري للبلاد. ثم ظهر في عهد يحيى بن محمد بن إدريس أحد مدعي النبوة الذين أقلقوا الدولة، ثم جاء يحيى بن يحيى فارتكب العديد من الحماقات.

وازداد ضعف الدولة في عهد علي بن أحمد بن إدريس، حين استعاد الخوارج نفوذهم، وعملوا على تقويض الدولة. وجاءت الضربة القاضية على يد الدولة العبيدية الفاطمية والدولة الأموية الأندلسية سنة 375هـ، 985م.

5- الدولة الفاطمية (العبيدية):

أسرة حكمت في التاريخ ما يقرب من ثلاثة قرون، (298 - 567هـ، 911 - 1171م). نشأت في شمال إفريقيا وامتد حكمها إلى مصر وبعض بلاد الشام، وتنتسب إلى مؤسسها أبي عبيدالله الشيعي الخليفة الفاطمي المؤسس.

بعث أئمة الشيعة العلويون دعاتهم إلى شمالي إفريقيا لنشر دعوتهم بعيدًا عن مركز الدولة العباسية. واستطاع أبوعبيدالله الحسين الشيعي أن يلتقي في أحد مواسم الحج بحُجاج من قبيلة كتامة البربرية، وأقنعهم بتبني الدعوة الفاطمية، وسافر معهم إلى إفريقيا (تونس)، فوجد البلاد مهيأة لنشر دعوته بسبب كراهية أهلها للأغالبة والعباسيين. فكون قوة عسكرية من الساخطين، فهزم بهم الأغالبة وأنهى حكمهم سنة 296هـ، 909م، واستدعى أحد أئمة الشيعة ـ سعيد بن الحسين ـ ولقبه عبيدالله المهدي ونادى به خليفة، ليؤسس بذلك بداية الدولة الفاطمية المغربية.

ذكر المؤرخون كلامًا كثيرًا عن عبيدالله. وكان أول ما قام به بناء عاصمة جديدة تسمى المهدية، ووسع رقعة بلاده بالسيف، وبقوة الأسطول الذي ورثه عن الأغالبة.

لجأ إلى تدعيم مركزه بالفتوحات المبكرة ليصرف الناس عن الصراع الفكري والسياسي داخل الدولة. ويرى بعض المؤرخين أن سبب انتقال عاصمته إلى المهدية ثم إلى القاهرة هو للخروج من هذا الجو.

بسط الفاطميون سيادتهم على مصر في عهد المعز لدين الله الفاطمي، الذي خلف عبيدالله المهدي، حين استطاع قائده جوهر الصقلي فتح مصر سنة 358هـ، 969م، وأطاح بالدولة الإخشيدية التي شاخت بعد موت كافور وضربها القحط والوباء، وأسس مدينة القاهرة سنة 358هـ، 969م والجامع الأزهر سنة 359 -361هـ، 969 -971م، وقصرًا لسيده المعز الذي انتقل إلى القاهرة سنة 362هـ، 973م، وجعلها عاصمة له، تنافس عاصمة الخلافة العباسية. وترك أمر المغرب إلى حكم قبيلة صنهاجة البربرية الذين عرفت دولتهم باسم دولة بني زيري نسبة إلى أول ملوكها بلكّين بن زيري الصنهاجي، وورث الفاطميون ملك الإخشيديين بالشام والحجاز، واستولى على الملك في بغداد قائد تركي يدعى البساسيري وأصبح يدعو من على المنابر للخليفة الفاطمي المستنصر.

وبسط الفاطميون نفوذهم على غربي البحر الأبيض المتوسط ليتحدوا مع الأمويين في الأندلس ضد عدوهم المشترك من عباسيين وروم.

6- دولة المرابطين (الملثّمين):

دولة المرابطين إحدى الدول الإسلامية التي نشأت في الفترة ما بين 448 - 541هـ، و1056 - 1147م في الجزء الشمالي الغربي من القارة الإفريقية. فقد اتحدت قبائل صنهاجة ولمتونة ومسوفة وجدالة البربرية في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي. وكان من بين أهداف هذا الاتحاد العمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء، فيما بين أقصى الشمال حيث منطقة والاتا، وأقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة غانا. ولم يُكْتَب لهذا الاتحاد عُمْرٌ طويل، فوهن ثم تلاشى. فانتهزت غانا تلك الفرصة فازدهرت، وتسلطت على بعض أجزاء الصحراء التي يؤمها تجار القوافل من البربر والعرب.

وعندما واجه زعماء هذه القبائل قوة غانا النامية أعادوا ثانية توحيد صفوفهم سنة 411هـ، 1020م، لصد هذا الخطر، يقودهم زعيمهم تارسينا الصنهاجي المسلم، الذي تشبع بروح الإصلاح والجهاد بعد حجته إلى مكة. خاض تارسينا معارك دامية ضد غانا، راح ضحيتها تارسينا نفسه سنة 413هـ، 1023م، وخلفه يحيى بن إبراهيم، شيخ جدالة وزوج ابنته ليكمل رسالته.

أخذ يحيى يبحث عمن يشاركه حمل أعباء الدعوة، فوقع اختياره على عبدالله بن ياسين الجزلي، الذي لجأ إلى رباط (وإلى هذا الرباط ترجع تسمية المرابطين) بعد فشله في الدعوة بين أهله الملثمين المنتشرين في الصحراء، فربى جماعة جهادية قوية على الفكر السني الصحيح. وقويت شوكته عندما كوّن أول نواة لدولة المرابطين التي اتسعت فيما بعد حتى الأندلس، وقضت على دولة غانا سياسيًا.

وتمكن المرابطون من فتح مدينة أودغست الصحراوية عام 447هـ، 1055م، وكومبي صالح عاصمة غانا عام 469هـ، 1076م وأقاموا عليها حاكمًا مسلمًا، وأضحى ملوك غانا من المسلمين منذ ذلك الوقت حتى عندما انفصلوا عن دولة المرابطين سنة 480هـ، 1087م، وأعلنوا تبعيتهم للخليفة العباسي في بغداد مباشرة.

قتل عبدالله بن ياسين في إحدى المعارك عام 451هـ، 1059م، وسار من بعده أبوبكر بن عمر الذي خلف يحيى بن عمر، وقد كان موفقًا في اختيار ابن عمه يوسف بن تاشفين ليكون ساعده القوي في تحقيق المبادئ التي انطلقت من رباط السنغال. وسرعان ما انتقل ابن تاشفين بالدولة من العهد الصحراوي إلى عهد الدولة الملتفة حول هدف الجهاد من أجل الإسلام. وقد كان بناء يوسف لمدينة مراكش والاستيلاء على مدينة فاس إيذانًا بهذا، واستجاب لنصرة المعتمد بن عباد ـ أحد حكام دول الطوائف بالأندلس ـ لدرء خطر ألفونسو السادس ملك قشتالة الأسباني على ملوك الطوائف المسلمين هناك. فاكتسحوا أسبانيا الجنوبية، وانتصروا على ألفونسو في موقعة الزلاقة.
انظر: الزلاقة، موقعة. ونجحت هذه الدولة في مزج العناصر المغربية والزنجية والأندلسية، مما تكون

عنه أسلوب حضاري جديد هو خلاصة التقاء هذه العناصر الثلاثة، وشلوا نفوذ إيطاليا البحري، وحالوا دون قيام حرب صليبية في المغرب مثلما حدث في المشرق. وأسهموا بدور كبير في نشر الإسلام بغربي إفريقيا.

سقوط دولة المرابطين. بدأت هذه الدولة تدخل في طور الأفول في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، لأسباب أبرزها:

1- انصراف علي بن يوسف عن شؤون الحكم إلى الزهد السلبي، ووقع تحت تأثير بعض الفقهاء ممن لا يحسنون السياسة.
2- انصرف فقهاء دولته في عهده وعهد من خلفوه إلى تكفير الناس بحجج واهية، واتجهوا إلى جمع الثروات، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
3- لم يعد لهم جيش يعوّل عليه في صد هجمات الغزاة، بل استسلم أفراده إلى ملذاتهم، وبلغ فسادهم حد قطع الطريق على المسافرين.
4- قامت ضدهم الثورات في الأندلس أدت إلى طردهم منها، وعادت الأندلس إلى ما كانت عليه من فوضى. وقامت ضدهم ثورة في إفريقيا فاختلت أحوالهم.
5- قضت دولة الموحِّدين على البقية الباقية من دولتهم.

ثم انتقل الحكم من بعدهم إلى الموحّدين.

دولة الموحّدين:

تنسب دولة الموحدين إلى الجماعة الإسلامية التي كونها محمد بن تومرت المهدي بالمغرب الأقصى. وترجع كلمة الموحدين إلى قولهم بأن الله تعالى وحده لا يمكن أن تتصوره المحسوسات، فهو فوق التشبيه، وكل تصوير لله تعالى يعد مجازًا، على خلاف أصحاب التشبيه والتجسيم، فالموحِّدون في نظرهم مخالفون للحقيقة، بل هم يرون رأيهم كفرًا، وهم لذلك يعتقدون أنهم هم المؤمنون حقًا، الذين يوحدون الله وينزهونه عن كل تشبيه له بالخلق.

توفي ابن تومرت بعد أن وضع أسس هذه الدولة، وأوصى بالخلافة من بعده لقائده عبدالمؤمن بن علي، الذي قضى على دولة المرابطين. وكان أول حاكم مسلم في تاريخ المغرب الكبير استطاع وضع يده على البلاد الممتدة من مصر إلى الأطلسي بالإضافة إلى أسبانيا.

وعندما ضعفت قبضة الموحدين على الأندلس، طمع فيها الأسبان، لذا قاد سلطان الموحِّدين الثالث المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي (580 - 595هـ، 1184 - 1198م) جيشه سنة 591هـ، 1195م، وانتصر على الأسبان انتصارًا كبيرًا في موقعة

الأرك قرب بطليوس، في العام نفسه. ولم يقل هذا الانتصار عن انتصار المرابطين من قبل في موقعة الزلاقة.

دور دولة الموحدين في الحضارة الإسلامية. سببت حركة الموحدين وقيام دولتها نشاطًا كبيرًا في المغرب، وتوسعت في زمن عبدالمؤمن مدينة مراكش التي اتخذها عاصمة له، كما أنه أسس بلدة صغيرة دعاها رباط الفتح، وتوسعت في زمن حكم حفيده أبي يوسف يعقوب المنصور، الذي اتخذها عاصمة له، وسميت بالرباط إلى يومنا هذا.

وامتازت الفترة الأولى من حكم الموحدين بتقدم حضاري عظيم في مجال العمارة والثقافة، فقد توسعت رقعة عدد آخر من مدن الموحدين وأقيمت فيها أبنية كبيرة، ما تزال آثارها باقية حتى اليوم. وقد عاش اثنان من أعظم فلاسفة المغرب، هما ابن طفيل وابن رشد، في ظل دولة الموحدين، ولقيا الرعاية من بلاطهم في مراكش. وعاش في بلاطهم أيضًا عدد كبير من الشعراء والفقهاء والأدباء والمؤرخين.